رُسُل الفكْر بين المغرب والمشرق

عبد العزيز بن عبد الله

لعل أبلغ الروابط وأعمقها بين الشرق والمغرب العربي قد تحقّقت على يد رُسل الفكر الذين كانوا يتوجّهون من المغرب بالآلاف [1] كل عام على مختلف أقطار الشرق فيصلون أسانيد الغرب بأسانيد الشرق ويتبادلون ألوان العلوم والفنون ويجدّدون الأَواصر المتينة التي ما فتئت تتجلّى منذ أَزْيَد من ألف عام في الوحدة الفكرية والروحية القائمة بين جناحَي العروبة والإسلام .

وكانت لوفود المغرب إلى الشرق أهداف مختلفة : فريق عابر يتّجه إلى الحجاز عن طريق طرابلس ومصر للحج والزيارة ، وقد يستفيد من العلماء الذين تجعلهم الصّدْفة في طريقه ، وفريق ثانٍ يقصد علماء معلومين للأخذ عنهم ، وفريق ثالث يستوطن الشرق أو يقيم طويلاً في رحلات شيقة عبر آسيا والشرق الأدنى ثم يعود إلى المغرب . وكان ملوك المغرب يوفدون في الغالب ركباً رسمياً للحج لتجديد الروابط مع حكومات الدول الشقيقة .

ويحمل هذا الركب هدايا لأمراء طرابلس ومصر والشام والحجاز واليمن وجوائز سَنية لرجال العلم والأدب في كبريات العواصم علاوة على الأموال الطائلة التي توزّع على الطبقات المُعوزة ، وكان الشعب المغربي يسهم بحظ وافر في هذه الاكتتابات الدورية ويوقف الأوقاف الضخمة لتركيز هذه المبرّة.

وقد ضرب المنصور السعدي المثل الأعلى لتثبيت اللّحمة الروحية بين الشرق والغرب ، فبعث إلى علماء مصر يستجيزهم رغبة في توثيق الأسانيد، فأجازه محمّد البكري وبدر الدين القَرَافي.

وكان المنصور هذا يكرم العلماء، فلذلك كثُر عليه الوافدون من الحرمَيْن وبين المقدس ومصر والشام والعراق والهند فاجتمع لديه مرة مدني ومكّي وقدسي (الأعلام للمراكشي، ج 1 ص، 47). ومن حسن سيرته ترجّاه أهل مصر وغيرهم أن يكون ملكهم (ص، 50) ومعلوم أن المهدي بن تومَرْت، ملك المغرب اجتمع في الشرق بالغزالي والطرطوشي ودرس هنالك علوم الشريعة والحديث والأصول، وقد ذكر ابن أبي زَرْع أن المهدي لقى مشايخ وأخذ عنهم ونبغ في الأصول ولازم الغزالي ثلاث سنين [2] .

ولمّا توحّدت مصر والشام والقدس تحت راية الأيوبيّين عام 583 هـ انقضّ عليها المسيحيون من كل جهة وتتابعت أساطيلهم لاعتراض الأسطول الأيوبي الرابض بالأسكندرية، فاستصرخ صلاح الدين بالمنصور الموحّدي طالباً إعانته بالأساطيل المغربية بمنازلة عكّا وصُور وطرابلس والشام، وأوفد إلى مراكش أبا الحرث عبد الرحمن ابن منقذ الشامي فأمدّه السلطان في بعض الروايات بمائة وثمانين قطعة من الأسطول المغربي .

ولما استولى أبو الحسن المريني على المغربَيْن الأوسط والأدنى وجّه سفيره فارس بن ميمون إلى الناصر محمد بن قَلاَوُون ملك مصر والشام والحجاز ليعلمه بارتفاع العوائق عن ركب الحاج في سابلتهم وتيسّر المواصلات بين البلدين، فعاد برسالة تؤكّد روابط المودّة، ثم ما لبث ملك المغرب أن اقتنى ضياعاً بالمشرق وأوقفها على القراءة ، ووجه وفداً فيه بعض الأدباء مع هدايا ثمينة جداً احتفاء بأخيه ملك الكنانة. وقد احتفل الشعب المصري بمقدَم الوفد المغربي في يوم مشهود وصفه ابن خلدون وابن مرزوق

والمقريزي مؤرخ مصر الذي ذكر أن الأسطول السلطاني هو الذي نقل الهدايا المغربية التي كانت عبارة عن ثلاثين قطاراً من بغال النقل، سوى الجمال، قيمتها مائة ألف دينار، أي مليون ونصف فرنك بالصرف الذهبي، لذلك العصر أو نحو 300 مليون فرنك حالي، وقد بودلت الهدايا بمثلها من منتوج مصر .

وكان للأدب تفتّقٌ في هذه المناسبات، فعندما وجه أبو الحسن مصاحف منتسَخة بخطه إلى الحرمَيْن والقدس، كتب ملك مصر توقيعه من إنشاء أديب مصر الشهير جمال الدين ابن نباتة في الثناء على شقيقه ملك المغرب.

وعندما توفي ابن قَلاَوُون، أوفد أبو الحسن عام 745هـ بعثا إلى ابنه إسماعيل مع رسالة تعزية طويلة بليغة لتجديد «عهود موثّقة وموالاة محقّقة والودّ الثابت الأركان »، وأخبره بالجهود التي يبذلها لإنجاد الأندلس، ثم أكد أن البلاد المصرية والمغربية هي «باتحاد الودّ متحدة والقلوب والأيدي منها منعقدة »، فأجابه ملك مصر برسالة بديعة من إنشاء خليل الصَّفَوي، شارح «لامية العجم».

وعندما كان أمير الركب المغربي في القاهرة حمله ملك مصر الظاهر بَرْقوق هدايا من منتوج الكنانة إلى ملك المغرب أبي العباس بن أبي سالم بن أبي الحسن.

ومما يدل على اهتمام ملوكنا بمصر خاصة والشرق العربي بوجه عام أنّ سيدي محمد بن عبد الله حبّس على مصر القاهرة والأسكندرية نسَخاً من ابن خلدون وابن خلِّكان و«قلائد العقيان» و«الأغاني» و«نفح الطِّيب» وتآليف ابن الخَطيب السلماني (إتحاف أعلام الناس لابن زيدان، ج 3 ص 251) .

وقد جلب السلطان سيدي محمد بن عبد الله من الشرق كتب الحديث المهمّة مثل مسانيد الأئمة أحمد وأبي حنيفة والشافعي وكثير من مهمّ المتون

والشروح كما رتّب لأهل الحجاز واليمن مائة ألف مثقال في كل عام وفَكّ عام 1200 هـ 48 ألف أسير حتى لم يبق أسير مسلم في الشرق ولا في الغرب [3] .

وكان الجيش النظامي الذي أسّسه المولى محمد بن عبد الرحمن يعمل تحت قيادة ضابط مصري (كودار، تاريخ المغرب ص 141) .

على أن علماءنا وأدباءنا كانوا يلقون نفس الحظوة عند ملوك الشرق، فهذا أبو الخطّاب ابن دحْيَة الأندلسي تجوّل بالأندلس والمغرب، واستقرّ بالقاهرة في كَنَف الملك الكامل، ثم زار أصبهان وبغداد ونَيْسابور وشيراز ودمشق والقدس وسَبْتة، وقد أخذ بالقاهرة عن أبي إسحق ابن أحمد ابن الواعظ المُرّاكشي، وكان له عند الكامل بمصر جاه عظيم وحظوة عَلية بعد العهد بمثلها حتى ليذكر أنه همّ بنصبه خليفة وبعثه رسولاً إلى الناصر لدين الله ببغداد فبعثه هذا بدوره سفيراً إلى بعض ملوك العجم وتوفي بالقاهرة عام 633 هـ (الذيل والتكملة) .

والخطيب ابن مرزوق الذي ولاّه السلطان الأشرف الوظائف العلمية بالقاهرة حيث دفن بين ابن الأشهب وابن القاسم (النيل ص 274) وكان يقول : «ليس اليوم يوجد من يسند أحاديث الصِّحاح سماعاً من باب الأسكندرية إلى البرّين إلى الأندلس غيري » (ص 275)، وقد توجه مجتهد المغرب عبد الله الوَرْياجلي القصْري ليأخذ العلم عن ابن مرزوق ، فقال له ابن مرزوق : «ليس أحد أعلم منك، فَرَجع » («دوحة الناشر» لابن عسكر ص 26)، وقد ألّف ابن مرزوق لأمير مصر كتاباً سمّاه « أشرف الطرف للملك الأشرف »، أكد فيه أن ممالك مصر أفضل المعمورة.

وقد دخل تاج الدين بن حَمَوَيه السرخسي المغرب[4] من الأسكندرية بحراً ووصل إلى مراكش أيام أبي يوسف يعقوب المنصور، واتصل بخدمته .

وأبو البركات عمر بن مودود الفارسي جال في همذان وبغداد ومَرْو والشام ومصر والأندلس حيث روى عنه الرعَيْني وورد على مراكش أيام

الرشيد من بني عبد المومن، فحظي عنده وأجرى له ثلاثمائة درهم وسبعة قناطير ونصف قنطار من الحواري، كل شهر سوى الأكسية والهدايا والتحف (الذيل والتكملة).

وورد على المغرب كذلك محمود بن أبي القاسم الخراساني أيام الناصر الموحّدي الذي أجزل صِلَته وروى عنه علماء مغاربة .

وورد على مراكش وسبتة محمد بن عبد الوهاب الدمشقي الحنبلي تلميذ ابن الجَوْزي متطوفاً على البلاد يعقد فيها مجالس الوعظ، وتوفي بمصر عام 657 هـ (الأعلام ج 3 ص 148 نقلاً عن الذيل والتكملة).

وفي أول ولاية يعقوب المنصور (عام 583)، ورد على المغرب أمراء الغز من مصر[5] فانخرطوا في الجيش المغربي، وجعل السلطان لهم مزية على أمراء الموحّدين بحيث كانت جامكيتهم شهرية وجامكية الموحّدين كل ثلاثة أشهر، وأقطع أعيانهم أوسع من أقطاع الموحّدين إكراماً لوفادتهم وتمتيناً للروابط بين البلدين الشقيقين («المُعْجب»، ص 177)، ومن جملة ما اقتبسه المنصور السعدي من الشرق تعيين شيخ للنسّاخين في العاصمة، ومقدّم لتعليم الخطّ ، وقد قام بهذا المنصب عبد العزيز بن عبد الله السكْتاني بجامع الشرفاء بمراكش كما هي العادة بالقاهرة وغيرها من بلاد الشرق («درّة الحِجال»، ص 378) .

وعندما عجز الأوروبيون المجلوبون لعصر قصَب السكّر وتصفيته وإخراجه من القوة إلى الفعل عن إتمام عمليتهم جلب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن الصنّاع المَهَرة من مصر القاهرة («الإتحاف»، ج 3 ص 552).

وبالجملة فقد تبلور التأثير المتبادل بين الشرق والمغرب في شتى المجالي وأبسطها حتى إن إقليم فَشْتالة (من تِطْوان إلى سَبُو) يُسمّيه الريفيّون بالشام الصغير، وأن سعيداً ابن صالح بَنَى في مدينة نكّور مسجداً على صفة

مسجد الأسكندرية بمحارسه ومنافعه («المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب»، وهو جزء من «مسالك» البكري، ص 91)، وأن بَصْرَة الرِّيف سُمِّيت بَصْرة العِراق ومراكش، هي بغداد المغرب («نفح الطِّيب»، ج 7 ص 174) وفاس هي دمشق الشام.

ومن كبار الرحّالين المغاربة محمد الشريف الإدريسي المولود في سَبْتة عام 494هـ صاحب «نُزهة المشتاق» وأستاذ أوروبا في الجغرافيا، قال في رسائل البشرى إنه «طاف بمصر وآسيا الصغرى والقسطنطينية وفرنسا وأنجلترا قبل أن يستدعيه ملك صقلّية» («الإعلام» لعباس بن إبراهيم ج 3 ص 34) وهو أول من اكتشف أن النِّيل ينبع من بُحَيرات خطّ الاستواء، في حين أن الأوروبيين لم يكتشفوا ذلك إلاّ منذ عهد قريب («حضارة العرب» لِكوسْتافْ لوبونْ، الطبعة الفرنسية ص 508).

والرحّالة ابن جُبَير الذي باع أملاكه بفاس ورجع للمرة الثالثة إلى الشرق عام 567هـ، وكان يتردّد بين الحرمَيْن والقدس والأسكندرية حيث مات بها عام 614 هـ («الإعلام» ج 3 ص 90).

وابنُ رشد الذي أخذ بالقاهرة عام 684 عن أعلام مثل خليل المراغي («درة الحجال»، ص 138)، وعن ذي النّون ابن الأسعد المصري (ص 114) والزيانب الَثلاث (ص 150). دخل مصر والشام وأخذ عن عبد العظيم المُنذري وبدمشق عن الحرّاني، وبالحرم عن ابن عساكر، كما في رحلته المسماة «ملء العيبة وإحضار ما جمع بطول الغيبة» ثم تحوّل إلى فاس ومراكش، توفي بفاس عام 721 هـ (ص 201–203).

وأبو القاسم محمد العبدي الحاحي الذي رحل إلى الشرق عام 688 هـ، وكتب رحلة وقف عليها شيوخه بمصر وغيرها واستحسنها شيخه زين الدين بن المنير الأسكندري، ومن أساتذته أبو الحسن القرَافي الذي له رواية عالية

متّسقة ببغداد والعراق ومصر، وشرف الدين المياطي وابن دقِيق العِيد قُطب مصر وعَلَمها («الإعلام»، ج 3 ص 197).

والرحّالة ابن بطّوطة الطّنجي الذي زار مصر وفارس والهند والصين وجزيرة العرب والساحل الشرقي لإفريقيا، ثم الأندلس والسودان، وقد ولد عام 703هـ ودامت رحلته 28 عاماً .

ومن التِّلِمْسانيين الذين استقروا بفاس ودُفنوا بها محمد بن إبراهيم العَبْدري الإبليَ، قيل إنه أعلم العالم في عصره بفنون العلم، دخل آخر المائة السابعة مصر والشام والحجاز والعراق، ولقى بالديار المصرية ابنَ دقيق العيد وصفيّ الدين الهِندي والتبريزي، وقرأ بفاس فنون التعاليم حتى عبر فيها ثم لحق بمراكش فتَضلّع عن ابن البنّا في المعقول والتعاليم والحكمة، ونظمه السلطان أبو الحسن المَريني في طبقات العلماء بمجلسه وهو أستاذ ابن خلدون، توفي عام 757 هـ («السَّلْوة»، ج 3 ص 274).

وعبد الرحمن ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ الاجتماعي المتوفى عام 808، وقد تولى خططاً سامية في تونس وفاس وتلمسان والقاهرة، وقضى شطراً من حياته في المغرب، وقد تحدث في مقدمته عن قواعد النقد التاريخي ودرس أصول المجتمع وتأثير الطقس في الإنسان وتطوره الاجتماعي حتى شُبّه بالفيلسوف مُونْتِسْكْيُو .

والحسن بن محمد الوزّان الفاسي الغرناطي رحل إلى فارس وبلاد التّتار، ثم رجع إلى الأسْتانة عن طريق مصر واختطفه القراصنة الطّلْيَان قُرب جزيرة جَرْبَة، ويُقال إنه تمسّح وأنه رجع إلى تونس حيث مات، وقد ألف بالعربية وترجم للإيطالية كتابه في وصف إفريقيا.

وأحمد الكاملي الضرير الدّرعي الذي زار المشرق وما ترك بلدة من المعمور إلاّ دخلها براً وبحراً، وكتب عدّة رحلات، وكان يقيم أياماً في كل

بلدة، ثم يرحل عنها ، ومكث سنة في دمشق وهو متضلّع في عدّة فنون، وهو محدّث كان يحفظ صحيح البخاري ومُسْلم بأسانيدهما، وكُتُب الأخبار والآداب ودواوين الشعراء القدماء والمولَّدين، سريع الحفظ كان يسمع القصيدة المرة الثالثة فيسردها من حفظه. تلاقى في الهند مع داود الكَلْكَتّي الذي عمره 200 سنة، وتوفي ودُفن بمراكش عام 1315 هـ («الإعلام»، ج 2 ص244).

ومن علماء المغرب وأدبائه الذين استوطنوا الشرق أو جالوا مدة طويلة في مختلف أنحائه، فكان له تأثير في الأقطار العربية أو الإسلامية مروانُ بن عبد الملك ابن سَنْجون اللّواتي الطنجي الذي أقام في الشرق سبع عشرة سنة يقرر الحديث والذي كان يقول: « لم أدخل إلى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية»، وهو من كبار الفصحاء في طنجة («معجم البلدان»، ج 6 ص 62).

وذكَر ابن دِحْية في «المطرب من أشعار أهل المغرب»: « إن عبد الملك بن زُهْر، طبيبَ الموحّدين، رحل إلى المشرق وبه مارَس مهنة الطب زمناً طويلاً وتولى رياسة الأطباء ببغداد، ثم بمصر، ثم بالقيروان» («الإعلام»، ج 3 ص 63).

ومحمد بن أحمد بن جراح الجياني المعروف بالبغدادي لطول سكناه ببغداد، روى عن علي الطبَري، وجلب من تواليفه أحكام القرآن وأصول الفقه والردّ على أحمد ابن جَنْبل، حفظ كتاب البَرَادعي قبل رحلته، واستقر بفاس بعد خروجه من جَيّان أوائل الموحّدين وتوفى بهاَ عام 546 هـ («السّلوة»، ج 3 ص 267).

ومحمد بن عامر الحمصي رحل إلى المشرق واستقر بحلَب والشّام وأقرأ هنالك مدة ثم رجع إلى المغرب واستقر بفاس وبها توفي بعد 570 هـ (ج 3 ص 267).

وعلي بن حُنَين الذي استوطن فاساً عام 503 ودرس بها ستّاً وستين سنة وتتلمذ للغزالي في الشرق («السّلوة»، ج ص 349)، وقد عاش بالشرق عبد الواحد المراكشي صاحب «المُعجب في تلخيص أخبار المغرب»، حيث ألّف كتابه المذكور وأقام بمصر عام 619 هـ («المُعجب» 161). كما رحل إلى بغداد العالم الكبير أبو عمران الفاسي المتوفى عام 430 هـ («التشوّف» للتادلي، ص 35، مخطوط المكتبة الزبيدية بالرباط)، وإلى الشام أبو محمدَ صالح بن حرْزهمْ تلميذ الغزالي («التشوّف»، ص 38) وأبو موسى عيسى ابن سليمانَ اَلرَفروفي من تادلا، أخذ عن الشاشي وعن الطرطوشي بالأسكندرية (ص 46).

وذكر ابن عبد الله في «الذّيل والتّكملة» ابْنَ جَعْفون الأزْدي المتوفّى بفاس عام 580 هـ، وعبد الملك بن محمد بن مروان بن زُهْر الذي أقام في الشرق طويلاً وجلب دواوين من فنون العلم، وعلي المُحاربي، وابن حُنَين الفاسي صاحب الغزالي جال في العراق والحجاز ومصر، وعلي الشلطيشي الطبيب دَفين مراكش، وعلي بن عتيق الطبيب الذي ضمّن شيوخَه المشارقة برنامجه الذي خرج به عن حدّ الفهارس إلى كُتُب الأمالي المفيدة.

وأبو زكرياء يحيى الدكالي الحافظ قَدِم فاساً وسَبْتَة، صَحبَ ابن دقيق العيد كثيراً («الدرّة» ص 489).

ومفضّل العُذري الذي ولاّه أبو يوسف بن عبد الحق قضاء الجماعة بفاس وجعل له النظر على صاحبَي الشرطة والحسبة، تتلمذ لعزّ الدين ابن عبد السلام وابن عساكر وابن خلّكان، وهو أول منَ سنّ بناء المدارس بفاس، إذ على يَدَيْه أسّست المدرسة القَديمة بالحَلْفَاويّين بفاس («جذوة الاقتباس» لابن القاضي، ص 220).

وأبو عمر ميمون بن ياسين اللّمتوني، سمِع على الطبَري صحيحَ مُسْلم، ومروان بن عبد الملك الطّنجي اللّواتي الذي سمِع بمصر من ابن نفيس وابن منير («الذيل والتكملة»).

ومحمد بن عمر بن نصر الفَزاري السُّلامي، قَدِم الأندلس ورحل إلى الشرق وروى عن أعلامه سنة 630 هـ («الذيل والتكملة») .

ومحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي، أقام بالمشرق خمسة عشر عاماً وأخذ عن عشرات الأعلام بالقاهرة وبغداد والقَرَافة ودمشق والصعيد الأعلى والأسكندرية والقُدس وطرابلس وإفريقية، كما تتلمذ بمصر للأختين ستّ الكلّ وستّ العلم ابنتَيْ عبد الله بن رَفاعة السعدي، وفاطمة بنت سعدَ الخيْر الأنصاريَة بالقاهرة، وتَقية بنت الخطيب غيث الأرمنازي. وقد ضمّن مشايخَه برنامجه الحافل الموَسوم بالنجوم المشرقة، وقد حدّث بالمشرق والمغرب، وهو صاحب «المُستفاد في مناقب العِباد» بمدينة فاس، وتوفي عام 604 هـ («الذيل والتكملة»).

وأحمد الشريشي، سَلَويّ الأصل، نشأ بمراكش واستوطن الفيّوم بمصر، أخذ عن أبي الحسن الأبياني بالأسكندرية وهو تلميذ عمر السّهْرَوَرْدي، توفي بالفيوم عام 641 هـ («الإعلام»، ج 1 ص،351) .

ومحمد بن أحمد بن أبي شاكر أبو عبد الله بن الظهير المراكشي المحتد، درس بدمشق، وقدِم مصر وحدّث عن كريمة بنت عبد الوهاب، وعلي السخَاوي ، وسَمِع بإرْبِل وبغداد، ولد بِإرْبِل عام 602 هـ («الإعلام» ج 3 ص. 195 نقلاً عن «بُغْيَة الوُعَاة») .

وجمال الدين محمد بن أبي بكر البغدادي أصله من قصر كَتامَة، له شيوخ ببغداد ودمشق والأندلس ومصر، وهو صاحب الوِتْريات في المَدْح النبوي، وقد ورد على مراكش صدر 655 هـ، ثم عاد إلى مَراكش وأقام بها مدة، وكان شافعيّ المذهب نظّاراً فيه، حسن المأخذ، توفي بتونس لدى قفوله إلى مراكش للمرة الثالثة عام 663 هـ، ومن خمس وِتْرياته محمّد الفاطمي الصِّقلّي، وطبعت بفاس («الإعلام» ج 3، ص، 152 بعَضها نقلاً عن «الذيل والتكَملة»).

وعمر بن الطوير السّوسي المراكشي ، شهر بمصر والحجاز بأبي الخطاب السوسي، تفقّه بمراكش، أخذ عن الفقيه عبد الوهاب البغدادي أصول الفقه وتعليقة محمد بن يحيى في مسائل الخلاف، وهو أول من أدخلها إلى المغرب، وأخذ بالأسكندرية عن الأبياري، وكان يحفظ «البُرْهان» لإمام الحرَمَيْن، وكان مستبحراً في العلوم، توفي عام 622 هـ (« الذيل والتكملة»).

ومحمد ابن المُنذِر المراكشي المتوفى عام 628 هـ نزيل حَلَب، قَدِم والدُه إلى بغداد وولد هو بها ولقي مولاي عبد القادر الجيلالي وسافر إلى الشام وقرأ على ابن عساكر تاريخه ودرس ببغداد الحديث والفقه، وكان فقيهاً غزير العلْم عالماً بالأدب («الإعلام» ج، 4 ص، 383 نقلاً عن «الذيل والتكملة»).

وابن الحدّاد محمد الصنهاجي، الشاعر المحدّث الصوفي المكناسي انتقل للمشرق لأمْرٍ قام عليه فيه الطلبةُ بخطبة قال فيها بأن الله خلق آدم على صورته («دُرّة الحِجال» ص 208).

ومحمّد ابن الخَضّار الكَتامي التِّلْمْساني السَّبْتي، سمع علوم الحديث لابن الصّلاح عليه بدمشق عام 634 («درَة الحجال» ص، 282).

وعلي بن ميمون الحسني المغربي الذي ترك لنا موازنة رائعة بين أقطار العروبة في الأصالة العلمية ومناهج التحقيق الفكري، حيث أكد أنه ما رأى أحفظ من أهل فاس لنصوص كل عِلم مثل النحْو والفرائض والحساب والتوقيت والتعديل والتوحيد والمنطق والبيان والطبّ، وسائر العلوم العقلية، وذكر أنه ما رأى مثلهم في ذلك لا في بجَايَة، ولا في تونس، ولا في الشام والحجاز ومصر («سلوة الأنفاس» ج1 ص، 74) وله كتاب في متفقّهَة ومتفقّرة مصر والشام، توفي بالشام («دوحة الناشر» لابن عسكر، ص، 25).

وعلي الحرالي، ولد بمراكش ونشأ بها وتوفي بالشام عام 637 هـ، كان يلقى في التعليم قوانين تتنزل في التفسير منزلة أصول الفقه في الأحكام، وكان أعلم الناس بالمنطق والطبيعيات والآلهيات، كان ينقض «النجاة» لابن سينا عُروة عُروة («نيل الابتهاج» لأحمد بابا السّوداني، ص 187–188).

محمد بن عمران الشريف الكركي، ولد بفاس وهو شيخ المالكية والشافعية بالديار المصرية والشامية في وقته، يقال إنه أتقن ثلاثين فناً من العلوم، بل قال الإمام شهاب الدين القَرافِي «إنه تفرد بمعرفة ثلاثين علماً وحده وشارك الناس في علومهم، صحب عز الدين بن عبد السلام وأخذ عنه القَرافي («الديباج المُذهّب» لابن فَرحون، ص، 286).

ويونس بن طربية القصري (قصر كتامة) الذي تولى قضاء طرابلس الغرب وولى التدريس بدار الحديث الكاملية بالقاهرة سنة 641 هـ (الذيل والتكملة).

ومن الأطباء المغاربة الذين توجهوا للشرق محمد بن عبد العزيز المعروف بالحاج عزّوز المكناسي أحد الحفّاظ والأطباء، أخذ عن أعلام المشرق، ثم عاد إلى مكناس (نيل الابتهاج، ص، 322)، وقيل مات في الشرق (الاتحاف لابن زيدان ج، 3 ص 593)، وكذلك علي بن يقظان السبْتي، الطبيب الشاعر الأديب الذي رحل إلى مصر عام 544 هـ، ثم إلى اليمن والعراق (القفْطي ص 160) وكذلك يوسف بن يحيى بن إسحق السبتي، أبو الحجاج نزيلَ حَلَب ويُعرف في سَبْتة بابن سَمْعون، كان طبيباً من أهل فاس «وقرأ ببلاده الحكمة فَسَادَ فيها» (القفطي، ص 256).

ومحمد بن علي المراكشي الأوْسي، نشأ بسَلاَ وغادرها عام 618 هـ وجال في الشام والعراق، ودخل بغداد وتَكْريت والمَوْصل ومصر والأسكندرية، وروى عن شيوخ عدّة ببغداد وحَمَاة ودمشق، ثم عاد إلى مراكش وشرّق ثانياً. ولد بمراكش عام 595 هـ وتوفي عام 671 هـ («الإعلام» ج 3 ص 162 نقلاً عن «الذيل والتكملة»).

ومحمد بن سليمان المرّاكشي الصنهاجي من شيوخ الأسكندرية، ومن المحدّثين والمسندين بمصر، مات عام 717 هـ («الإعلام» ج، 3 ص، 248).

وأحمد المَعَافري المعروف بالوقّاد ،توفي عام 741هـ، انتقل إلى الأسكندرية، ودرس بها العلمَ، وجدُّه محمد المعافِري العالم الرحّالة هو دفين الأسكندرية («السلوة» ج، 3 ص، 86) .

وتاج الدين المراكشي، وهو محمد بن إبراهيم بن يوسف (701–752هـ) ، ترجمتُه في «الشذَرات»، أُخرِج من مصر لشراسته، وولي تدريس المسْرورية بدمشق ، وقد درس بها بعده تقي الدين السُّبْكي («الدارس في تاريخ المدارس» لعبد القادر النعيمي (ج 1 ص 458) ، وقد أشار النعيمي في «الدارس» كذلك إلى أبي الحسن المراكشي المالكي المتوفى عام 625 هـ (ج2 ص 6) ، وإلى سالم بن إبراهيم المغربي الصنهاجي الدمشقي المالكي، شيخ المدرسة الشرابيشية، المولود عام 777هـ (ج 2 ص 22) وإلى قاضي القضاة شهاب الدين التلمْساني المتوفى عام 873 هـ، وقاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن المَريني المغربي (ص 23) ، وشمس الدين السّلاَوي، عامل خَانْقَاه خَاتُون، دفين الصالحية (ص 109) .

وإسماعيل السوسي، الطبيب، ذكر العَبْدَري في رِحْلته أنه لما وصل إلى قاعدة الديار المصرية، ونزل بمدرسة الظاهرية مريضاً، بعث إليه شيخُه شرفُ الدين الدمْياطي بالحكيم أبي الظاهر إسماعيل لعلاجه وهو فَتى، حدث السنّ، رصيف العقل، نافذ الفهم، ما رأيت احفظ منه للطب، ولا أحسن منه تصرفاً، ولا أذكَر لنصوص كتب أبُقْراط (ولكن لا أدري هل هو من سُوس أم سوسة) .

ومحمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد الشيخ تاج الدين المراكشي، ذكر ابن السُّبْكي في طبقاته أنه ولد بعد السبعمائة ونشأ بالقاهرة، وقرأ على علاء الدين القُونَوي، أعاد في القاهرة بقية الشافعي، ثم دخل دمشق ودرس

بالمروزية وسمع من الحافظ المزي ثم ترك التدريس وانقطع بدار الحديث الأشرفية إلى أن توفي عام 752 هـ (الأعلام ج 3 ص 265)، وذكر الحافظ في «الدُّرَر» أن إخراجه إلى الشام كان بأمر من الناصر بعد استطالته على القاضي جمال الدين القزويني ، ومن مشايخه أبو حيان (ص 269).

وأحمد بن عبد الله الأزْدي المراكشي، نزيل القاهرة، ذكره صاحب «الدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة».

والحافظ يوسف بن موسى السّبْتي ثم الفاسي روى البخاري عن الزبيدي والحديث عن ابن الصلاح، توفي آخر المائة السابعة (الدّرّة ص 496) .

وابن المُوّاق أحمد التجيبي، استظهر بمصر «المُوَطّأ» فضرب شيوخ المالكية الطبول على رأسه إشادة وتنويهاً، توفي بفاس عام 725 هـ («السلوة» ج 3 ص 244).

والشيخ التّاوُدي بن سُودَة الفاسي الذي قال عنه الشيخ مُرْتضَى الزَّبيدي في شرحه للقاموس (مادة سود) «شيخنا المحدّث الفقيه المغربي، ورَدَ علينا حاجّاً وسمعنا منه وسمع منه أيضاً بالمدينة المنورة ومصر خَلقٌ كثير» («السلوة»، ج 1 ص 114) .

وابن زكْري الفاسي، دخل لمصر وناقش فقهاءها في مسألة شرب الدخان وعقد علماؤها مجلساً لمناظرته في جامع الأزهر («السلوة» ج 1 ص 83) .

وأثير الدين أبو حيان البربري النّفْزي المتوفى بمصر عام 745هـ («السلوة» ج 3 ص 278) .

ويحيى بن موسى الرّهُوني الحافظ الأديب المنطقي، استوطن القاهرة وتولى التدريس في المنصورية والخانقاه الشيخونية، توفي عام 774 («الدرة» ص 490). ومحمد بن سعيد الرُّعَيني الفاسي، رحل إلى المشرق وأخذ عن أعلام مشارقة توفي عام 787 هـ («السلوة» ج 3 ص 278) .

وجمال الدين محمد بن موسى المراكشي الأصل، ثم المكّي، وصل إلى مصر فسمع من شيوخها، ثم رحل إلى الشام والقدس واليمن حيث ولي مدرسة الناصر وأقام بها. مات عام 823 («الإعلام»، ج 4 ص 50 وذُيول «طبقات الحفّاظ»).

ومحمد تقي الدين الفاسي الذي قال عنه الحافظ ابن حَجَر «وافقني في السماع بمصر والشام واليمن وغيرها، وكنتُ أودّه وأعظمه» توفي عام 842هـ («نيل الابتهاج» ص 318).

ومحمد بن إبراهيم ابن الخضري الهَنْتَاتي المراكشي الموحّدي المصري المولد والدار، ذكَر المَقْريزي في كتابه أنه كان يحفظ العُمْدَة والإلمام لابن دقيق العيد والشاطبيّتَيْن والطَّوَالع في أصول الدين وابن الجَلاّب والرّسالة في الفقه والحَاجبية والَمِلْحة وغالب ألفية ابن مالك والتلخيص، وحدّث وأفاد ودرّس وأعاد، وقال الشعر الحسن وطارح الأدبَاء، واشتهر بالمُجون الخليع مع المشاركة التامة حتى في اللغة والطب والهيئة، ولي تدريس الفقه بجامع الحاكم والقرانسقرية والحسنية والحديث بالفاضلية والإعادة بالكاملية والمنصورية، وكتب عنه ابن فهد، مات عام 872 هـ («الإعلام» ج 4 ص 125).

وقد تحدث أبو اليمن مجير الدين في «الأُنْس الجليل بتاريخ القدس والخليل» عن زاوية المغاربة بالقدس الذي أوقفها عمر المغربي المصمودي عام 703، ثم تولاها بعده العلامة جمال الدين عبد الله المراكشي عام 795 هـ (ج 2 ص 505).

ومن المغاربة الذين استوطنوا بلد الخليل الشيخ زين الدين عبد الكريم بن علي بن عبد الرحمن المقدسي المتوفى عام 895 هـ (الأُنْس ج 2 ص 549) وابن جبارة الشاعر وعبد الله السكري وخليفة الجابري (ص 583) وإبراهيم بن منصور التلمساني (585)، ومحمد بن علي الفلاح نائب قاضي القدس، وأحمد

بن عبد الرحمن التلمساني، قاضي المالكية بالقدس (586)، وقاضي القضاة محمد بن سعيد المغراوي وأحمد الرياحي (587)، وابن المغربي ومحمد المصطاوي وشهاب الدين المغربي، قاضي الجماعة بالمغرب (ص 642)، وعلي الجَزُولي نائب إمام المالكية في المسجد الأقصى، وكان يؤم بجامع المغاربة (ص 691).

ومن الحفّاظ عبد الرحمن سُقّين الذي ارتحل إلى المشرق عام 909 هـ، وأخذ الحديث عن القَلْقَشَنْدي وزكرياء الأنصاري والسخَاوي بمصر، وعن ابن فهد بمكة، وكُلّهم عن ابن حَجَر («السلوة» ج 2 ص 160) .

وكذلك الكمال ابن أبي البركات المكناسي الذي روى عنه الحافظ ابن حَجَر العَسْقلاني، وكان لإدريس العراقي فضل على محدّثي مصر حيث استدرك أحاديث كثيرة على «الجامعَ الكبير» للسّيوطي تَنيف على الخمسة آلاف، وكان سيدي عمر الفاسي يقول إنه أحفظُ من ابن حَجَر («السلوة» ج 1 ص 142).

ومحمد بن عبد الله الزقّاق الفاسي، أخذ بمصر عن ناصر الدين اللقاني، توفي عام 968 هـ (السلوة ج 3 ص 282) .

والسفير محمد بن محمد الجَزولي الدرْعي، أخذ في مصر عن نجم الدين الغيطي ومحمد بن أبي بكر العَلقمي، وعن ابن فهد بمكة، توفي بفاس عام 988 /284 .

ومحمد بن علي الدادسي ليس من أهل العلم، ولكن له سَنَد صحيح، أخذ عنه الصفَوي المقدسي عن زكرياء عن أبي حَجَر وعن زين الدين المرصفي، عن أبي حَجَر وعن موسى النشائي، عن يوسف الشريف عن الجَلال السّيوطي، توفي عام 999هـ («دُرّة الحجال»، ص 226) .

ومحمد بن محمد بن سليمان الفاسي الرّوداني، وصفه في «خلاصة الأثر» بأنه فرد الدنيا في العلوم كلها، وُلد بتَارُودانْت حصلت له - بعد

التّطواف على مصر والحجاز والشام وبلاد الروم - الرياسة العظمى التي لم يُعهد مثلها لأحد، وكان في الحكمة والمنطق والطبيعي والإلهي الأستاذ الذي لا تُنال مرتبته بالاكتساب، وكان يتقن فنون الرياضة بإقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسّطات والمَجِسْطي، ويعرف أنواع الحساب والمقابلة والأرِتْماطيقي والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره، وكان في العلوم الغريبة كالرمل والحروف والسيمياء حاذقاً أتم الحذق، توفي عام 1094 هـ (الأعلام ج 4 ص 334)، وقد تنافس الناس في اقتناء الآلة التي اخترعها، فكان يبيعها بثمن غالٍ، وقد ألّف رسالة في وصفها وهي منشورة في «الإعلام» (ص 350) والآلة عبارة عن كُرة مستديرة مسطرة دوائر ورسوماً، وقد ركّبت عليها أخرى مُجَوّفة منقسمة نصفين فيها تخاريم وتجاويف الخ («نشر المثاني» للقادري، ص 87).

ومحمد بن محمد بن قدّور المراكشي الأصل الأسكندري الفقيه ذكره أحمد ابن حسّون في رحلته التي ألفها عام 1270 .

ومحمد (فتحا) الدقّاق الدّغْمي السّلاَوي، قام بتدريس الحديث في المدينة أكثر من عشر سنين، وكان معظّماً عند ملوك الشرق وخصوصاً السلطان العثماني الذي كان يوجه إليه جائزة سَنية في كل عام («الإعلام» ج 5 ص 60 نقلاً عن فِهرسة الحافي) .

ومحمد الورْزازي الدّرعي الحافظ الشهير بالصغير وبالقاضي، اشتغل بالتدريس في مصر، وكانت له اليَدُ الطّولَى في الفقه والعلوم العقلية، توفي بمصر عام 1138 («الإعلام» ج 5 ص 38) .

وأحمد بن محمد بنّاصر الدّرْعي، قرأ في مصر على ابن الحسن الزّعْتري رسالة أبي الفتح في العمل بنصف الدائرة، ورسالة في علم الإسْطرلاب، ورسالة في علم كرة العالم، توفي عام 1129هـ («الإعلام» ج 2 ص 161) .

والعالم محمد المجيدري اليعقوبي، قيل إنه أحد أربعة لم يبلغ في عصره (عصر سيدي محمد بن عبد الله) مبلغهم، وقد رحل إلى الشرق وأكرمه أمير مصر («الإعلام» ج 5 ص 88)، وقد خلّف لنا كثير من هؤلاء العلماء، ومن بينهم العياشي صاحب الرحلة مصنفات قيمة ضمّنوها مشيختهم في الشرق، ومنهم من ترك وصفاً رائعاً للحركة الفكرية في الشرق الإسلامي وللتبادل الثقافي مع المغرب، وقد صنّف حازم صاحب «المَقصورة» وشيخ ابن رشيد السّبتي «الدرة المضية في تاريخ الأسكندرية في مجلّدات»، و«المُستفاد من شيوخ بغداد» («درة الحجال»، ص 137).

والفنّان الكبير عبد الكريم الفاسي الملقّب بالزريع، قامت على أكتافه نهضة متواضعة في صناعة الخَزَف بمصر إبّان القرن الثاني عشر الهجري(6)، وقد صنع ألواح القَشاني لتغطية جدران العمائر، وتوجد الآن نماذج من ذلك في دار الآثار العربية بمصر، كما أشار إلى ذلك تَيْمور في كتابه حول التصوير عند العرب.

ومدرسة الشيخونية هي أكبر مدرسة بمصر، كان بها فضلاء مغاربة مصامدة («نيل الابتهاج» لأحمد بابا السوداني، ص 84 و 96).

والملحوظ هو أن معظم العلماء المغاربة الراحلين إلى الشرق هم من مراكش أو فاس، وهذا يدلنا على أن فاساً كانت حقاً حاضرة المغرب اجتمع فيها علْم القَيْروان وقُرطُبة حيث رحل من كلتيهما العلماء، فنزل أكثرهم مدينة فاس («المُعجب»، ص 220)، وقد انتقد أحمد القباب الفاسي علماء إفريقية مثل ابن عَرَفة، فرجع إليه («نيل الابتهاج»، ص 53)، وابن عَرَفة هذا تلميذ لابن شارة الزمّوري (ص 329).

ولا بِدْعَ، فقد ذكروا أن عبد الرحمن بن عفّان الجَزُولي المتوفى عام 741 كان يحضر مجلسه أكثر من ألف فقيه معظمهم يستظهر «المُدَوَّنة»

(«الجذوة» لابن القاضي ص 258)، وكان في مجلس عبد المومن الجاناتي بفاس 400 من حُفّاظ «المُدَوّنــة» (ص 274) .

ومن التآليف المغربية التي لها صيت كبير في الشرق زيادة على مؤلفات ابن خلدون والمقّري، كتاب أبي الحسن بن القطّان المَوسوم بـ «الوهم والإيهام الواقعَيْن في كتاب الأحكام الكبرى» لعبد الحق الإشبيلي، لم يؤلّف في بابه مثله حسب صاحب «الذيل والتكملة» لما فيه من براعة النقد في الحديث وعلومه وعِلَلِه وأطرافه.

الهوامش

1) ذكَر كودار في تاريخ المغرب المصنف عام 1860 أن ثلاثة آلاف مغربي يسافرون كل سنة إلى الخارج منهم أربعمائة أو خمسمائة إلى أوروبا والباقي إلى الشرق (ص 242).

2) أكد ملاقاته مع الغزالي أصحاب الحلل الموشية ورقم الحلل واليوسي في محاضراته، وصاحب نشر المثاني وصاحب تاريخ الدولتين والشيخ مرتضى، ولم يجزم ابن خلدون في تاريخه، ولا صاحب المعجب وقطع بنفيه ابن الأثير في الكامل .

3) في عام 1199 هـ وجّه السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى أشراف مكة والمدينة وسائر الحجاز واليمن مالاً قدْره ثلاثمائة ألف ريال وخمسون ألف ريال علاوة على صلات أخرى لأشخاص معينين (الاستقصا ج 4 ص 115).

4) محمد بن سعيد القيسي قاضي المولى إدريس من قَيْس غَيْلان، سمع مالكاً وسفيان الثوري (جذوة الاقتباس، ص 13) .

وأبو جيدة حامل مذهب مالك والشافعي بفاس، توفي سنة ثلاثمائة وبضع وستين، له تآليف في الوثائق الشافعية (السلوة ج 3 ص 93) .

5) مدينة حمْص أحد أرباض فاس الجديدة، عبارة عن قصبة أسّست للرماة الغز الواردين من مدينةَ حمص السورية، وقد جعل منها السلطان أبو سعيد المريني الذي هو أول من أسكن اليهود في المَلاّح، المَلاّح الحالي (ماسينْيون، «المغرب في السنوات الأولى للقرن السادس عشر»، ص 227) .

6) نَشَرت الوثائق المغربية (ج 11 عام 1907) بحثاً ذكرت فيه أن ابن شَقْرون الفاسي كان وكيلاً للمغاربة بالقاهرة عام 1898، وأنه كان يحفظ تَرِكات الرعايا المغاربة القاطنين بعاصمة الكِنانة ، وكان بمصر ما بين 1200 و 1500 مغربي.